إلى الذي جعل من حب رسول الله ﷺ وثيقة اتهام ضد رسول الله[1]

في كتابي «فقه السيرة» وصف للمدى الذي بلغه حب كثير من الصحابة لرسول الله ﷺ وذِكْرٌ لكلمات قالها عروة بن مسعود - وقد كان مشركاً - في وصف هذا الحب، فقد كان فيما قاله لأصحابه، وقد عاد من حُنَيْن إلى مكة:

«أي قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إنْ رأيت مِلِكاً قطُّ يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحابُ محمدٍ محمداً. فوالله ما تنخَّم نَخامةً إلا ابتدرها رجل منهم فدَلَك بها جلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده».

فحدثني صديق أُجلُّه أن رجلاً عمد إلى الصفحة التي فيها

(١) هذه رسالة جوابية كنت وجهتها لواحد من هؤلاء الذين ينعتوننا بالظلاميين، جعل من محبة الصحابة لرسول الله وثيقة اتهام ضده، وجعل من مزاجه الشخصي حاكماً على كل من اتبع أصحاب رسول الله في محبتهم له بنعت الظلاميين. ولقد أدخلت هذه الرسالة الجوابية تعليقاً في مكانها المناسب من كتابي فقه السيرة، ولكني رأيت إثباتها هنا أيضاً، لأنها محور من محاور الحكم علينا بالظلاميين. ولسوف تكشف الرسالة لك أن كلمتي «ظلاميين» و«متنورين» غدتا اليوم من الأضداد تتقاذفهما الأمزجة ذات اليمين وذات اليسار لتتبادلا الأماكن والدلالات.

كلام عروة هذا، من كتابي «فقه السيرة» فاستنسخ منها ما شاء من الصور بالـ: «فوتوكوبي» وجعل يدور بها على الناس، متخذاً منها وثيقة اتهام، بل انتقاص لرسول الله ﷺ!...

وأقول: أما ما عمد إليه هذا الرجل من استكثاره لهذه الصفحة التي تضمنت هذا البيان، ونشرِها في الناس، ولفتِ أنظارهم إلى ما قد دلَّت عليه، فلا ريب أنه مشكور على ذلك ومأجور، لو خلصت النية وصفا القصد.. فإنَّ عمله هذا ليس إلا تأكيداً لحقيقة ثابتة قد يجهلها كثير من الناس اليوم، ألا وهي شدة تعظيم الصحابة لرسول الله ﷺ والمبلغ الذي بلغه حبهم العجيب له!.. وما أكثر الألغاز الجاثمة التي تتحدى العقل، في معالم الفتح الإسلامي وأحداثه، لو لم يفسرها هذا الحب العظيم الذي هيمن على مجامع القلوب وامتد إلى أغوار النفوس، والذي جاء ثمرة اليقين العقلي الجازم بأن محمداً ﷺ هو رسول الله ورحمته المهداة إلى الناس أجمعين.

وأمّا ما قصد إليه هذا الإنسان، من وراء ذلك، من إدخال كراهية محمد عليه الصلاة والسلام في القلوب، وإظهاره في أعين الناس في مظهر المُدِلِّ على أصحابه، المتلذذ برؤية هذا الذي يتسابقون إليه، وإبرازِه في صورة الثقيل السمج، دأبُهُ أن يُريَ الناس من نفسه ما كان خليقاً به أن يستره عنهم، يروّضهم بذلك على حبّه وعلى الاستئناس بكل ما قد يتصل به أو ينفصل عنه - أقول: أمّا ما قصد إليه الرجل من ذلك، فقد أبعد النُّجعَة، وأخطأ الطريق، وخانه الهدف!..

كثيرون هم الذين سعوا هذا السعي، واعتصروا الفكر، واستنجدوا بالحيلة، وناشدوا التاريخ، كي يتاح لهم أن ينسجوا صورة من هذا القبيل لمحمد رسول الله ﷺ، فما عادوا من سعيهم أو محاولتهم بأي طائل. وظل كل من العقل والتاريخ والفكر الحر أمناء على الكلمة الجامعة التي وصف الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٤].

اقرأ ما تشاء من صفحات أي كتاب في شمائل هذا الرسول العظيم، تجد نفسك أمام المثل الأعلى والنموذج الأتم، للإنسانية السامية الصافية عن الشوائب، وللذوق الرفيع في مقاييس المعاملة والسلوك، وللإحساس المرهف في رعاية الآخرين والاهتمام بهم، وللنظافة والرتابة وأناقة الشكل والمظهر، وللتواضع المتناهي أمام كل أصحابه، بل أمام سائر الناس.

لم يكن يستقبل الوافدين إليه إلا بأنظف الثياب وأبهى الحلل.

كان أشد ما يكون حرصاً على ألا يرى الناسُ منه إلا ما تُسرُّ به العين، وألا تقع أنوفهم منه إلا على أطيب رائحة. وقد ثبت أنه كان ينفق جُلَّ ماله في الطيب.

لم يكن يأكل ثوماً أو بصلاً، أو أي طعام يؤذي الناس برائحته الكريهة. ولما كان ضيفاً في دار أبي أيوب الأنصاري، في أيامه الأولى من هجرته إلى المدينة، وعادت قصعة الطعام من عنده

مرّةً دون أن يَطْعَم مِنها شيئاً، فزِع أبو أيوب وهُرِع إلى رسول الله يسأله عن سبب ذلك، فقال: لقد شَمَمْت فيه رائحة تلكم الشجرة «أي الثوم» وأنا أُناجَى - أي يزورني الناس وأحادثهم - أما أنتم فكلوا.

وكان إذا مضى لقضاء حاجته، أبْعَد ثم أبعد، حتى لا يقع الناس منه على أثر.

وكان يرجِّل شعره، ويتعهد فمه وأسنانه، وربما أبصر صُفْرةً في أسنان بعض جلسائه، فتوجه إلى الجميع بنصيحة عامة ونقْدٍ رفيق، وقال: «ما لكم تأتونني قُلْحاً ألا تتسوَّكون؟».

هذا هو محمد عليه الصلاة والسلام، في بعض ما تتحدث عنه شمائله المعبرة عن سموّ أخلاقه، ورِقَّة شعوره، ونبل إحساسه، فهل تَرى في هذه اللوحة الإنسانية النموذجية، مساحة ما، لقبول أي عبث أو تزوير وتشويه؟

إذن فليس في شيء من حديث عروة بن مسعود عن حب الصحابة لرسولهم، ما يُلْحق بالرسول أي منقصة في طبعه، أو يَصِمُه بأي غِلظة في تعامله وسلوكه، أو يبرزه في مظهر المُدِلّ زُهُوّاً على أصحابه، أو الدافع لهم إلى ما فعلوا.

* * *

فإن أراد هذا الرجل أن يتحول، بعدئذ، بالنقد والاشمئزاز إلى أولئك الناس الذين ساقهم الحب إلى ما صنعوا، فإنّ عليه أن

يتبين قبل كل شيء خصمه الحقيقي الذي أثار في نفسه بواعث النقد والاشمئزاز حتى لا يتهم البرآء ظلماً وعدواناً.

وإنما خصمه في هذه الدعوى: الحب!..

الحب هو الذي حمل أولئك الناس على فعل ما وصفه عروة بن مسعود، وفعل ما هو أبلغ من ذلك!..

الحب، هو الذي لين تحت سلطانهم الحديد، وقرب إليهم البعيد، وجعل المستحيل بين أيديهم ممكناً، وجعل القبْح جميلاً، والملح الزُّعاقَ حلواً طيب المذاق!..

هذا هو شأن الحب، وذلك هو جبروته وسلطانه.

فإن علم هذا الرجل أن في نواميس هذه الحياة، سلطاناً أقوى نفوذاً إلى النفوس وهيمنة على القلوب من سلطانه، فلْيَشْكُه إليه، ولْيَسْتعْدِهِ عليه، وليصف له اشمئزاز نفسه، من هذا الذي يفعله الحب، بنفوس الناس ومن العمل الذي يحملهم عليه!..

ولكن يا عجباً!.. يرى ويعلم هذا الرجل وأمثاله ما يفعله الحب الأرعن بأصحابه، أعني ذلك الحب الذي يتسلل إلى القلب في غفلة من العقل، أو مع تحدٍّ للعقل وأحكامه، إذ يسوق صاحبه إلى شذوذات عجيبة في السلوك، ويزجه في أوحال من المهانة والقذارة التي يشمئز من بيانها البيان، فلا يستعظم من ذلك شيئاً، ولا تشعره نفسه الحساسة بأي كراهية أو اشمئزاز، بل ما أكثر ما يبارك كتابُ، وأدباءُ، وشعراءُ، هذا

الشذوذ «الوردي» وما أسهل أن يتصوروه أو يصوروه تجسيداً رائعاً للهيجان الخمري المعتّق!..

حتى إذا رأى صورة ذلك الحب العلوي الذي ينسكب في المشاعر كلها وفي كلٍّ من القلب والعقل معاً، وأبصر شيئاً من آثاره في حياة صاحبه وسلوكه، تعجب واستغرب، واصطنع التأفف والاشمئزاز، وأخذ يندب اللباقة والذوق الرفيع!..

ألا، فليعلم هذا الرجل وأمثاله أن كل شيء في الدنيا يخضع لقانون مستقل عنه، إلا الحب، فلن تراه خاضعاً إلا لقانونه ذاته!..

والويل كل الويل لمن كان حب قلبه تمرداً على عقله.

وليهنأ ذلك الذي كان حبه القلبي تجاوباً مع قراره العقلي. وحسب أصحاب رسول الله شرفاً وفخراً أن الحب الذي استبد بقلوبهم لرسول الله، كان شعاع إيمانهم العقلي بصدق نبوته، وسموّ مكانته عند رب العالمين جل جلاله. فليفعل بهم هذا الحب ما يشاء، وليحملهم على التبرك والتمسُّح بعرقه وبصاقه وما يتساقط من شعره وما يتقاطر من ماء وَضُوئه.. فإنما هي لغة الحب.. ولا تصاغ لغة الحب إلا في داخل بوتقته ولا يتحكم بها غير قانونه.

وإني لأعلم أن في الناس اليوم من لو رأت أعينهم محمداً ﷺ يمشي على الأرض، لهاج بهم هائج الحب، ولخرُّوا إلى الأرض، يلعقون الثرى الذي سما وازدهى تحت قدمي رسول الله!..

ولا يخاصم منطقَ الحب هذا إلا من يقارعه بمنطق الكراهية والبغض.

وخصومةٌ كهذه، لا يقرها منطق ولا يدعمها عقل، إذ من البدهي أن الجدل حول أمر ما، لا يتحرك ويتفاعل إلا فوق أرض من اليقين بحقيقة مشتركة بين الطرفين المتحاورين.

وقد التقطت حكمة الدهر كلمةً قيل إن مجنون بني عامر قالها يوم سمع أن في الناس من يعيب عليه وينتقده لتعلقه بليلى، وهي فيما زعموا سمراء دميمة، فقال:

لو نظروا إليها بعيني لعلموا أنهم مخطئون.

ألا فليعلم الذين ينعتون قراراتنا التي قضى بها العقل إدراكاً، ووقَّع عليها القلب تعظيماً وحباً بـ «الظلامية» أن اللعب بالكلمات لا يُجرد المعاني عن حقائقها. فوصف الشمس المتلألئة في كبد السماء بالكرة السوداء المظلمة، لا يقلب النهار المشرق إلى ليل دامس.

ومن أبى إلا أن يخاصم العقل وأن يفرَّ من الحوار، لن يجد ما ينجده في خصامه إلا العبث بالألفاظ وإعادة النظر في الدلالات، والتحكم في معاني العبارات. ومن أعجزته مناقشة المعاني، لم يعجزه التصرف في الألفاظ ولا اختلاق الشعارات، ولا عصرنة القراءات.

وأخيراً.. ما أحلى الرجوع إليه

لو تابع أحدنا الألطاف والنعم التي تفد إليه من الله عز وجل، متسربة إلى كيانه، أو متألقة أمام عينيه أو سارية بالمتعة إلى أنفه أو سمعه، ودام في متابعته ومراقبته لها نحواً من أربع وعشرين ساعة، لَهَفا القلبُ منه بالحب الحقيقي لصاحب هذه الألطاف، ولفاض شوقاً إلى لقياه. وها أنا ذا أحدثك عن نماذج من هذه الألطاف:

تأمل في نعمة الرقاد إذ يسري إلى كيانك بتدبير من الله عز وجل، بعد ساعات من جهد النهار وتوتر الأعصاب، دون أن يكون لك في استجلابه إليك أي فاعلية أو دور.. ثم قف أمام نعمة اليقظة إذ تعيدك بفضل منه إلى وظائف الحياة، شعوراً وذاكرة وإدراكاً.. ثم فكر وأنت تتجه إلى الحمّام في السُّمُوم التي ينجِّيك الله منها وينقذك من عقابيلها.. ثم عد وتأمل وأنت تقف أمام المغسلة في هذه المادة السيالة العجيبة التي تمتاز بالشفافية التي لا تقبل أي لون، وبالصفاء الذي يتسامى على أي رائحة أو طعم، ولو كان فيها شيء من ذلك لغابت عنها فائدتها ولعجزت عن أداء وظيفتها، تأمل في هذا الشيء العجيب الذي نسميه (الماء)، ولا تنس أنه لو فقد من حياة الإنسان ثمانياً وأربعين ساعة لاشمأز من نفسه ولعاف حياته.. فإذا جلست بعد ذلك إلى

مائدة الطعام فتأمل في الأصناف المنثورة منه أمام بصرك، تجدْ أنه نتيجة سماء أمطرت وأرض أنبتت وأنعام سخرها الله لك لحوماً وألباناً. فإذا بدأت تأكل من هذا الذي سخَّره الله لك أرضاً وسماءً وأنعاماً، فتأمل كيف تمضغ اللقمة في تجاويف فمك، ثم ترسلها إلى حلقك، وسائل نفسك: كيف لا تقضم لسانك الممتزج مع قطعة اللحم التي تطحنها تحت رحى أضراسك، ثم كيف تجد سبيلها بعد ذلك سائغة إلى حلقك فجوفك. تجد نفسك أمام سلسلة من الألطاف الإلهية التي تحوطك ولا كحياطة الأم لوليدها.

فهذا نموذج صغير جداً من الألطاف التي تسري بالرعاية والحماية إلى داخل كيانك..

أما تلك الألطاف الأخرى التي تجوب أنساماً من حولك، أو التي تتألق زهوراً وورود أمام بصرك، أو التي تسري عبقاً إلى أنفك، أو التي تنبعث طرباً في أذنك ونشوة في نفسك، فلست أملك من البيان المعبر عنها إلا أن أقول: إنها بحق رسائل حب أو تحبب من الله إليك.. وإنك لتجد فيها ما هو عزاء للمحبين في الآمال التي افتقدوها، وما هو ترجمة للأشجان السارية إلى قلوبهم، وما هو رجْعٌ لصدى الأشواق المنبعثة في نفوسهم.

إذن ليس بينك وبين أن يصبح قلبك وعاء حب لمولاك العظيم واللطيف هذا، إلا أن تتابع في يقظة فكرية ألطافه ورسائل حبه الواصلة منه إليك، مدة لا تقل عن أربع وعشرين ساعة متواصلة.

❊ ❊ ❊

غير أني أريد أن أمهد بهذا الذي ذكرت لحقيقة أخرى تنطوي على ألطاف إلهية من نوع آخر، تأسر القلب وتذيب إنسانية الإنسان حياء من صاحب هذه الألطاف العجيبة وحباً له واشتياقاً إليه:

يراك مولاك هذا شارداً عنه، متقلباً في غمار أهوائك، مستسلماً لرعونات نفسك، متنقلاً بين مُتَعِك، محجوباً عنه بشواغلك والسعي إلى أحلامك وآمالك، فلا يزيده ذلك إلا حباً لك ورحمة بك وإشفاقاً عليك (ما لم يكن باعثك إلى الشرود عنه استكباراً يملك عليك كيانك واستغناء بأوهام قوتك عن الاستعانة به والافتقار إليه)، ومن ثم فإنه لا يدعك تفارق الدنيا إلا وقد جذبك إلى حماه ودعاك إلى الاصطلاح معه، ونبهك إلى عظيم حبه لك وبالغ عنايته بك. ولكأنه يقول: ألم يأن لك أن تعود من طوفتك التائهة بين بوارق السراب إلى من بيده أمرك وإليه مردّك؟ ألم توقظك بعدُ بوارق الأوهام التي أضنيت نفسك لَحاقاً بها إلى الحقيقة التي آن أن تتبينها وتعرفها، وأن تعلم أن بيدها مفاتيح سعادتك؟.. ألم تتبرَّم بعد من تعاطي كؤوس أوهامك لتعود إلى المعين الصافي والمورد العذب، إلى إلهك الذي إليه شرْحُ صدرك وتدبير أمرك، ذاك الذي أضحك وأبكى وأمات وأحيا؟

إن هذه الأسئلة التي تفيض بالعتب والحب من مولاك عز وجل هي الترجمة المفصَّلة الدقيقة، لسؤاله المغموس بالعناية والحب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ

مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦/٥٧]. كم لاحق به شاردين وتائهين من عباده، فانعطفوا إليه عائدين قائلين: بلى يا ربّ لقد آن!.. لاحَقَ بهذا السؤال الحلو المحبب ذلك الشارد عن سبيله الفضيل بن عياض، لاحَقَ به الشابَّ المفتون باللهو عبد الله بن المبارك، لاحَقَ به الأمير الغارق في ملاذِّه بشراً الحافي، وكثيراً من أولئك الذين خلوا من قبل، فاصطلحوا جميعاً مع مولاهم الذي دعاهم واجتباهم إليه. وذاقوا، بل انتعشوا بلذة القرب منه بعدما عانوا طويلاً وحشة البعد عنه، وأصبحوا من خير عباد الله الصالحين.

وبوسعك أن تتبين كيف أن هذا السؤال المعاتب ذاته يلاحق أناساً ركِبوا رؤوسهم في اتباع الشهوات الجانحة وركنوا من سعيهم إلى فنون من العيش أنستهم واقع عبوديتهم لله، وحجبتهم عن الإصغاء إلى خطاب الله الناصح الآمر والناهي لهم.. ثم إنْ هي إلا مناسبات تمرّ، أو كلمات من بيان الله تطرق أسماعهم، أو رؤى ومنامات يتجلى فيها الله بشكل ما لهم، أو مواقف أمام بيت الله أو لحظات خشية أمام مثوى رسول الله أتيحت لهم، وإذا اليقظة الإيمانية قد دبَّت في نفوسهم، وإذا الحب الأقدس لله عز وجل قد فاض في قلوبهم، وإذا الحياء منه قد هيمن على وجدانهم، وإذا الحجب الكثيفة قد انجابت عن أبصارهم وبصائرهم، وعندئذ يتناهى إلى سمع كل منهم عتاب رباني رقيق يقول: أما آن لك أن تعلم أنني أنا الخليق بحبك.. أنا الذي يعطيك قبل أن تطلب.. أنا الذي ينجدك قبل أن تستنجد.. أنا الذي يؤنسك في ليالي وحشتك، أنا الذي ينقذك من ساعات

كربتك.. الجمال الذي يأسر قلبك أنا سرّه ومصدره، المُتْعَةُ التي تنشُدها أنا الذي أبْدَعَها وقَرَنَها بأسْبابها.

كم في الناس الشاردين اليوم عن محراب العبودية لله، من قد أعادهم هذا العتاب الرباني الآسر إلى واحة العبودية له، لم يكلفهم هذا التحول إلا نظرة لطف من الله إليهم، ذلك هو الاجتباء الرباني الذي لا يتطلب كثير دراسة ولا طويل مناقشة أو حوار، كما هو شأن من تريد أن تهديهم عن طريق الفكر وعرض الحجج، والإنذار والتخويف، إنما هو الانتشال من وادي الضياع والجذب إلى صراط الاتباع والجذْب، وما أكثر ما يتم ذلك ما بين عشية وضحاها.. وإن سألت: فما القوة الجاذبة التي نقلتهم طفرة من ظلام التيه والجهل إلى نور الهداية والعرفان؟ أقول لك: إنها الحب.. الحب الذي يتجه من الله لعبده، قبل أن يتجه من العبد لربه. وإنك لتنظر إلى حال هؤلاء (المُجْتَبَيْن) فلا تشك في أنهم مأخوذون بنشوة حب الله لهم ولطفه بهم أكثر من أن يؤخذوا بحبهم له ورضاهم عنه.

فهذا ما أعنيه باللطف الرباني المتميز من سائر النعم والألطاف الوافدة إلينا منه عز وجل، مما ذكرت نماذج منها، من قبل، إنها الألطاف التي تجذبك إليه وتعيدك من شرودك عنه إلى الاصطلاح معه والانقياد له. وهي الألطاف التي إن تعرضت لها ساقتك لا إلى حبه فقط، بل إلى عشقه والتعلق به.

ولتعلم أن كلًّا منا معرض لهذه الألطاف محلّ لهذا الاجتباء، إن لم يكن اليوم ففي الغد القريب أو الذي بعده، ولن تحول

المعاصي التي نتورط فيها بيننا وبين بلوغ ألطافه هذه، بل إنها تلاحق العصاة قبل غيرهم.. ولكن فئة واحدة من الناس لن تجد هذه الألطاف الربانية إليها من سبيل.. إنها فئة المستكبرين على الله، المستهينين بتعاليمه، المتمردين على واقع عبوديتهم له، فهؤلاء قضى الله، من خلال سنّة ماضية في حقهم، ألا ترتفع عن عقولهم حجب الزيغ، وألا ترتد عن قلوبهم أغلفة القسوة والعناد. إنهم أولئك الذين قال الله عنهم:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ٧/١٤٦].

ولكن فلندَع الحديث عن هؤلاء الذي يزجنا الكلام عليهم في وحشة كلنا في غنى عنها، ولنرجع إلى الحديث عن ألطاف الله والناس الذين جعلهم الله محلاً أو أهلاً لها. إنهم قد يكونون موغلين في الشرود والعصيان، غير أنهم إنما ذهبوا ضحية ضعفهم وعجزهم عن مقاومة رعوناتهم، فهم كالمريض الذي يعلم أنه بحاجة إلى الدواء، أو كالمخمور الذي يرمق بعين الانكسار الناس الذين عافاهم الله من بلائه.. كن على يقين أن ألطاف الله لن تتخلى عنهم، وأنهم، بدون ريب، محلٌّ لرحمته بهم وإحسانه إليهم.

وأنصحك ألا تزدريهم وألا تسيء الظن فيهم، فأنت لا تدري إلامَ سيؤول حالهم. لعل الأيام القادمة تريك منهم أئمة مهديين

بل هداة صالحين، وإن بين ظهرانينا اليوم كثيراً من هؤلاء رجالاً ونساءً، وإننا لنرجو الله أن ينفعنا بدعائهم.

وإن المناسبات الزمانية والمكانية التي تتجه فيها ألطاف الاجتباء إلى الشاردين عن رحاب الله كثيرة متنوعة.

ألا ولتعلم أن مقياس محبة الله وغضبه لا تكمن في الساعة التي ترى الإنسان فيها طائعاً أو عاصياً، وإنما تكمن في مصيبة الإعراض عنه أو نعمة الرجوع إليه..

فلنهتف جميعاً أنشودة الرجوع إلى رحابه، أنشودة الترامي على أعتابه، قائلين جميعاً: ما أحلى الرجوع إليه.. أجل، ما أحلى الرجوع إليه.

خاتمة القول

الآن، وقد رجعنا إلى مولانا، بعد طول تيه وشرود، أين هو موقع كلمتَي «الظلاميين» و«المتنورين» من عودتنا إليه واصطلاحنا معه؟

إنني لا أوجه سؤالي هذا إلى المستكبرين على الحق والمستخفِّين بالدين ومضامينه؟ فهؤلاء لن يتاح لهم الرجوع إليه، حتى بعد أن ترجع إلى الله أرواحهم. وينجلي السِّر الذي طالما كان خفياً عنهم، ليصبح حقيقة ماثلة أمام أبصارهم.. فقد قضى الله قضاءه المبرم في حق هؤلاء ألّا تفيدهم الحقيقة بعد جلائها أمام أبصارهم في شيء، بل لابدّ أن تتحول إلى مادة عذاب تذيب كياناتهم ونار ندامة تأكل قلوبهم، أجل.. ولسوف يُكشَفُ عن بصر كل منهم الغطاء، فإذا هو ناظرٌ وحديد. ولكن حجاب المقت الإلهي لن يرتفع عن أعينهم ولا عن بصائرهم، كان بالأمس، في حياتهم الدنيا، حجاب عتوّ واستكبار، ولسوف يتحول إلى حجاب طرد ومهانة وعذاب. وصدق الله القائل في حقهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٠]. إنه الاستكبار الذي أراهم الظلام نوراً والنور ظلاماً.

وإنما أتوجه بسؤالي هذا إلى أمثالنا ممن أيقنت بالحق عقولهم، وصدقت بالله وملائكته وكتبه ورسله ألبابهم، ولكن الضعف البشري حال بينهم وبين كمال الالتزام بالأوامر والابتعاد عن النواهي، فعاشوا حياتهم الدنيا بين الخوف والرجاء والأمل والحياء، ثم إن صدق الإيمان بالله أصبح شفيعاً لهم، ومزيج الخوف والرجاء والتفاؤل مع الحياء، أعادهم إلى حظيرة القرب فأذاقهم الله من لذة قربه، وأكرمهم بسابغ رحماته، وكفَّر عنهم ماضي أوزارهم..

أين هو موقع «النور» و«الظلام» من حياة هؤلاء الذين أنْهَوا رحلتهم في الدنيا إلى الله عز وجل على هذا المنوال؟..

هنالك، يتجلى لكل من النور والظلام معناه.. وتنبثق في كل منهما حقيقتُه، فلا يتأتَّى حينئذ اللعبُ بالألفاظ، ولا يُغني نسيجُ الأخيلة والأوهام لصبغ كل منهما بغير حقيقته. هنالك ينبثق الإيمان الحقيقي الذي كان مهيمناً في الدنيا على الأفئدة والألباب، ليصبح نوراً بل ضياء يتألق على الوجوه ينير لأصحابها مواقع السير على صراط الله..

وهنالك يبحث «المتنورون» في دار الدنيا بظلام الجحود والكفران والاستخفاف بالحق وأحكامه، عن نورهم الذي كانوا يتبجحون به ويُعيِّروننا بالافتقار إليه، فلا يرون من حولهم إلا وحشة الظلام.. ولسوف يَسْعَون جاهدين إلى أن يقتبسوا لأنفسهم نوراً ممن كانوا ينعتونهم في الدنيا بالظلاميين ولو من خلال النظر إليهم.. ولكنهم سيكتشفون أن النور في ذلك اليوم

لا يُستعار وإنما يُبْتَغى من معينه في الدنيا، وأن الظلام لا يَتجاوزُ مصادِرَه وأهلَه. فذلك هو قرار الله المُنبئ عن تفاصيل تلك النهاية، في قوله عز وجل:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٢-١٤].

* * *

قارئي الفاضل: لا يُفرحنَّك اليوم أن يقال عنك: مُتنوِّر أو مُستنير، ولا يؤلمنَّك أن يقال عنك ظلامي جهول. ولكن اجهد جهدك أن تدَّخر لنفسك اليوم نوراً يضيء أمامك الطريق يوم تُدعى إلى السير على صراط الله، وحاذر أن تركن إلى استكبار على الحق أو استخفاف بشرائع الله ووصاياه، فتنقلبَ من ذلك بظلام دامس يُغشي عليك في ذلك اليوم مواقع قدميك على صراط الله الذي ينتهي عنده مصيرك.

وأبشِّر نفسي وأبشِّرك بأن ضمانة الفوز بذلك النور غداً موجودة مُيسَّرة، وهي أن نمارس اليوم صدق العبودية لله، وأن نعالج تقصيرنا في أداء حقوقه علينا بدوام الالتجاء إليه واستنزال

الصفح والمغفرة منه، وأن نشتدَّ في الرقابة على أنفسنا، ألّا نكون من المستكبرين على أمره، ولا من المستخفِّين بشرعه أو من المستهينين بأنبائه. وأوصيك أن تقول معي كلما ساقتك نفسك إلى ارتكاب معصية ما فتغلبت عليك: «اللهم إني ما عصيتك إذ عصيتك استكباراً على أمرك أو استخفافاً بشرعك، ولكن لسابقة سبق بها قضاؤك فالمغفرة منك والتوبة إليك».

وإلى لقاء قريب في رحاب مولانا الودود، وقد أُبْنا إليه مع المؤمنين والمؤمنات الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم.. قائلين: الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء. وإنه ليوم آت لا ريب فيه.

تم الفراغ منه صباح يوم الأربعاء
الواقع في ٢٦ رجب عام ١٤٣١ هـ
الموافق لـ ٧ تموز عام ٢٠١٠ م
في فندق براء بقضاء آلانيا
في تركيا